في سوريا ، فان تأييد الحركة للرئيس جمال عبد الناصر جعلها تدخل في مجابهة خاسرة مع حزب البعث الحاكم ، ففقدت مقعديها في الوزارة ، ومنعت صحيفتها « صوت الجماهير » من الصدور ، الا انها عوضت عن هذه الهزائم الى حد ما حينما اجتذبت اليها شبانا من عدن، بينهم قحطان الشعبي وابن عمه فيصل ، قاموا عام ١٩٦٣ بقيادة انتفاضة ردفان ضد الاحتلال البريطاني ، تلك الانتفاضة التي تحولت فيما بعد الى ثورة عارمة تعتبر ثاني أعظم ثورة عربية في هذا العصر ضد الاستعمار (بعد الثورة الجزائرية) .

ان نمو الحركة السياسي بقدر ما هو مهم ، لا يعادل في أهميته نموها الفكري الذي كان هو في الواقع النمو الفكري للمثقف العربي الملتزم بصرف النظر عن المنظمة السياسية التي ينتمي اليها اليوم ، أو التي كان ينتمي اليها بالأمس . فمن الليبرالية اليمينية التي كانت نقطة الانطلاق ، سار المثقف العربي الملتزم ، بعثيا كان أم حركيا أم ناصريا ، الى أن التقى بالماركسية على أرض اليسار العالمي الجديد، وكان هذا هو التحول الثوري في الوطن العربي. فلم تعد الحركة الصهيونية متميزة عن الامبريالية الغربية في الاذهان ، كما كانت سابقا ، بل اصبحت جزءا عضويا منها . وكذلك الفكر القومي الوحدوي لم يعد يطرح بمعزل عن الاعتبارات والعوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية ، مثلما كان الامر في السابق . ولم تعد استعادة فلسطين هي قضية ثأر وانما أصبحت حركة تحرير شعبية عامة . ومع ان الحركة انتهت مع نهاية الستينات لتحل محلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كرست نفسها لهدف أوحد ، ومع أن هذه الجبهة نفسها قد انقسمت بعد ذلك الى ثلاث جبهات : الشعبية والديمقراطية والقيادة العامة ، الا ان الصراع الفكري الذي خاضه أعضاء الحركة على مدى عقدين من الزمن قد أثمر دروسا تاريخية هي اليوم جزء أصيل من التراث المعاصر لهذه الأمة .

ان الدكتور قزيحة قد قدم دراسة قيمة الى القارىء ، واذا كان هناك ثمة تحفظ عليها ، فهذا التحفظ ينصب على مؤسسة فورد التي تبنت المشروع . فان هذه المؤسسة تابعة لنفس الشركة الاميركية الكبرى التي فتحت مصانع السيارات والمدرعات في اسرائيل ، علاوة على علاقتها الحميمة مع وكالة الاستخبارات المركزية . اننا لا نريد أن نحكم على المؤلف من هذه الزاوية ، بل نفضل ان نطلب من الجامعات والمؤسسات الثقافية العربية ان تسد الطريق على مؤسسة فورد ومثيلاتها وذلك بأن تقوم هي باستكتاب الباحثين وتبني المشاريع العلمية .

وكلمة نقد أخيرة : يستشهد الدكتور قزيحه في سياق كتابه بمؤلفين هما ايلي كدوري وفاتكيوتس ، مع ان أولهما كاتب صهيوني اشتهر بتلفيقاته ، والثاني كاتب مأجور بمعنى الكلمة ، وعلما بأن الاستشهادين لا ضرورة لهما مطلقا ولا يضيفان الى النص شيئا مفيدا ، ولذا كان من الافضل عدم اسباغ صفة المرجع الثقة على هذين الكاتبين .

فارس المنصوري